



# عيون البقرة الميتة

- ١ -

لقد كفر عبد الله أبو سعدة ...  
في الايام الاولى التي كفر فيها ، كان وكان مسا أصاب عقله ، ينقل  
من ساحة البيادر الى المعصرة ، ومن العين الى فيور « الروملي »  
الاثرية ، ومن مكان الى آخر وهو يصيح :

- هذا رب .. هذا ...؟؟ لا يعرف البقرة من الحمار ..؟؟ اتفقنا  
على الحمار .. وحتى قلنا له انه مربوط خارج البيت .. قال «طيب» .  
ولكن طيب هذه لم تنفع .. كيف يكون ربا وهو لا يعرف البقرة  
من الحمار ؟

وليس هذا فحسب ، بل ان عبد الله ابو سعدة أوقف صومسه  
وصلاته .. وأكثر من ذلك .. غير اسمه من عبد الله الى عبد الزفت .  
قال انه بينه وبينه عداوة .. دم .. وكان كلما دعاه أحد عبد الله ،  
يثور فيه فجأة .. وطعنا رفض الناس ان ينادوه باسمه الجديد ، وكنوع  
من المساواة ، توقف الناس عن مناداته باسمه الحقيقي ، واكتفوا  
بمناداته « العبد » .. أو « العبد ابو سعدة » .

هذا كان في الايام الاولى التي كفر فيها . ولكن ، مع الوقت ،  
هدأ واستسلم . ولكن شيئا واحدا ، رفض أن يعمل : أن يصلي  
ويصوم ويشاهد . وقال الناس : « كفر ابو سعدة » .  
وأما كيف كفر ابو سعدة فقد كان الامر كما يلي :

- ٢ -

تلك الليلة صلى عبد الله ابو سعدة ركعتين زيادة ثم راح ،  
بكفين مفتوحتين وخشوع صادق ، يدعو الله أن لا ينزل به تلك الضربة ،  
لانه طول عمره رجل صالح ، لم يؤذ أحدا . وحتى عندما ابتلاه ربه  
بسفطة كاملة من البنات ، صبر صبر ايوب .. مشيئة ربك ..

ولكن هذه الليلة ، كان الامر يتملق ببقرة المريضة . وقد كان  
مهموما جدا . فهل يمكن أن يوجه اليه ضربة أشد من موت بقرته ؟  
بالإضافة الى قطعة الارض الصغيرة التي يملكها ، فقد كان كل متاعه  
الحقيقي من الدنيا ، تلك البقرة وحمار خدر سمج مهترىء الجسم  
لا ينفع . ومع انه كان شديد الاهتمام بحماره ، الا ان أماله كانت  
معقودة على البقرة .

كان عبد الله ابو سعدة ، قد اشترى بقرته تلك قبل سنتين .  
بقي لسنوات يطوي الليرة على الليرة ، ثم باع كردان زوجته ، وذهب  
الى سوق « الاثنين » في البلدة القريبة بعد ان استصعد تصريحا  
عسكريا يمكنه من السفر اليها .

دار في السوق يتفرج على الطرش . كان يعرف ماذا يمكن  
لليرات التي في جيبه أن تشتري له . راح يتمن البقر الذي عيلى  
أكتافه لحم ، دون ان يتجرأ حتى أن يسومه . حتى وقعت عيناه على  
« خميسة » . كانت هيئاتها تدل على انها الوحيدة التي يمكن أن يتجرأ  
ويفكر بشرائها . كان صاحبها ، الواقف بجانبها ، يمسك برسناها  
ويصيح على طول صوته ، ليجذب انتباه رواد السوق :

- « حرائة .. دراسة .. من يسوم ؟ .. حرائة دراسة .. »  
اقترب عبد الله ابو سعدة منها . وزنها بعينيه . كانت جلدا  
على عظم . فتح فمها ، وتطلع فيه وكأنه يبحث عن شيء فقسده بين  
أسنانها . لم تكن عجوزا . كان الرجل صاحبها ما زال يرفع عقيرته  
بالصيح :

- « حرائة دراسة .. حرائة .. دراسة .. » .  
ابتعد عبد الله خطوة او اثنتين ، وراح يدور حول البقرة ،  
ويقيسها ويشيلها ويحطها ويزن الصفقة ..  
- « معقولة .. » - قال في نفسه - « في سنة واحدة ستصح .  
ساجملها شغلي الشاغل .. » . وطرات له فكرة ..  
- هل هي معشرة ؟ .. - فكر . لو انها كذلك لكانت الصفقة  
مثالية بالنسبة لليرات التي معه .

راح يحديق في بطنها ، يحاول أن يستنتج . كان فيه شيء يبعث  
على الشك . ربما ان هذا نفاخ ليس الا ..  
كان الرجل الذي رأى عبد الله ابو سعدة مهتما ببقرة ، قد زاد  
صياحه وهو يدل على بقرته .

وهتف عبد الله ، يسأل الرجل وكأنه يفتح ورقة بانصيب يأمل  
أن تكون رابحة :

- « وهل هي .. معشرة ؟ .. »  
ووضع يده على قلبه ينتظر الجواب .  
ونظر صاحبها فيه وكأنه يستغرب سؤاله وقال :  
- « يا رجل .. قلنا لك حرائة دراسة . فهل كان عندها وقت  
حتى تضر ؟ .. » .

ولكن بهذا أو بدونه ، كان قد قرر ابرار ابو سعدة . وبذل جهده  
وهو يساوم ، حتى استطاع أن ينزل الرقم الذي طلبه الرجل ، الى  
عدد الليرات التي في جيبه . وتمت الصفقة .  
وقضى عبد الله ابو سعدة سنتين وهو يهتم بها كحبة عينه .  
وعلى حساب لقمة عياله . حتى صار على جسمها لحم . ومع ذلك

تلك الليلة ظهر له ربه .

لم تكن له صورة معينة . خفقت الدنيا فجأة أمامه ، وإذا بعينين واسعتين نورانيتين ، تشمان اشعاعا هادئا وعميقا . وبدأ للرجل ان ظهور ربه ، لا يمكن ان يكون الا هكذا .

ومع التهييب والحرع الشديدين ، اللذين أحس بهما ، الا ان النظرات الرحمانية من تينك العينين ، شجعته ان ينحني ويقبل اليد التي لا يراها ، ويطلب من القوي القادر ، ان يمنح خراب نصف البيت بشفاء « خميسة » . وخيل اليه انه سمع صوتا لم يميز كلماته ، ولكنه أحس على اثرها بارتياح .

وفي الفجر نهض ، وهو يشعر بارتياح شديد . فما وقع له اعتبره اشارة خير . اقترب من بقرته ، وقرص امامها . كان عنقها ينام كله على الارض . ورأسها مثل البطيخة الذابلة ، وعيناها تنظران في الرجل في ياس واستعطف ، نفس النظرة التي تمتصه مسن الداخسل .

وقضى ابو سعدة نهاره ذاك بالتي هي أسوأ . انشغل في بعض الامور التي لا يمكن تأجيلها ، ولكنه كان مشغول البال ، يقب وبرجع الى بقرته ويقرص امامها قليلا ، لعله يلمح بعض التقدم . ولكن الواقع كان العكس .

وفي المساء لم تكن تقوى حتى على الخوار . وكانت مثل الزق الجلدي المنفوخ قليلا . هامة على الارض تتنفس انفاسا ثقيلة . وتكوم عليها الذباب ، استضعفها وطمع فيها دون ان تقوى على تحريك ذيلها او رأسها لتشهه .

وزاد الرجل في صلاته هذه الليلة ...

وبعد ان أدركه النوم ، رأى ربه ثانية . بدا له وكأنه جاء الى موعد مضروب سلفا . كان هو - ابو سعدة - ينتظره في عرق البلوطة التي خلف البيت ، عندما ارتج الاق وظهرت نفس العينين الواسعتين العميقتين . وانحنى على اليد التي لا يراها ، يقبلها بقوة أشد . وبدأ صوته أشد تضرعا . وسمع نفسه يقول لربه انه اذا كان ولا بد ، فليقبل الحمار فدية عن البقرة . وأحس الرجل بضمير مرتاح ، ان استعداده التخلي عن الحمار ، هو تضحية كبيرة . ولكن لا بدك على المر الا الذي أمر منه . في الحمار ولا في البقرة . شر أهون من شر . وسمع صوتا ربانيا فهم منه انه يقول « هكذا سيكون » . وحتى لا يكون أي مجال للفلط قال الرجل :

- « البقرة مربوطة في داخل البيت والحمار في الخارج .. » . وخيل اليه ان العينين الواسعتين تنظران فيه بتفهم ، وان نفس الصوت يكرر « هكذا سيكون .. » او شيئا من هذا القبيل . فطفرت من عينيه دمة فرح .

وعندما صحا في الفجر ، رفع رأسه قبل ان يفتح عينيه . كان مرتاحا جدا ومتاكدا ان المصيبة عبرت . وليذهب الحمار الى الجحيم .

وما كاد يفرق عينيه ويفتحهما ، حتى قفز من فراشه الى البقرة في قاع البيت . ولكنها كانت جثة هامدة . وفجأة ثقب أذنيه نهيق الحمار ، وصوت أرجله وهو يفرب بها الارض خارج البيت . كان ينط ويقفز مثل القرد ، وكأنه أعطي حياة جديدة .

قرص بجانب البقرة الميتة ، وراح يتحسسها . كانت باردة كالثلج ، وعيناها مطفانان . تطلع في وجهها فاقشعر بدنه رهبة . عجيب .. ان البقر الميت وجوها أشبه بوجوه البشر الوتي ...

وأحس الرجل ان غمامة سوداء نزلت على عينيه ، وان كتلة ألم

ففي السنة الاولى ، رفضت ان تعشر . لم يقدر جسمها الهزيل ان يستوعب ما أسقطه فيه الثور ، وضاع الاجر الذي دفعه لصاحب الثور . وفي السنة الثانية استوعب ورمى ما استوعب . وهذا كان خطوة الى امام . واما هذا الموسم فقد كان يستعد ان يأخذها للهداء ، بعد ان صح جسمها . وهو مطمئن الى ان الثالثة نابتة . ولكن ...

ولكن ... ذات صباح ، ذهب ابو سعدة لاحضارها من سفوح الوادي القريب من البيت ، حيث تركها في الليل ، بين المشب تتشمس ، فوجدها مكومة على الارض ثقيلة الانفاس ، وتخور بشدة بين الحين والآخر .

وراح ابو سعدة يضرب اخماسا بأسداس . ربما انها أكلت عشبة سامة ، او اصابها ابو ملعون او عين شربة . على أي حال قرر ان يعمل بسرعة . سحب حمارة الى بيت الحججة « زهرة المنقبة » لان قدميها الريفتين لا تحملان جسمها المترهل ، وكان بيته هو في طرف القرية ، وجاء بها . وزهرة المنقبة كما تقول هي من نسل سيدنا الشيخ السعدي صاحب المعجزات والبركات ، الذي طبقت شهرته الافاق جيلا بعد جيل .

قعدت الحججة في مواجهة البقرة ، وفي يدها قطعة خبز . كانت الاثنان تفران وتشخران حتى ان الواحد يمكن ان يفلط بينهما فيمن المريض ومن يداوي من . وراحت بقطعة الخبز التي في يدها تخرج عن البقرة . رسمت سبع دوائر حول رأس البقرة ، وهي تسمى وتصلي . ثم راحت تتنم بكلمات مفهومة وغير مفهومة ، تطارد بها الشيطان الذي في البقرة ، وتستعدي عليه الرحمن الرحيم ، الذي سيقصف رقبته ، اذا لم يلحق حاله وينفذ بجلده . وبعد ان تناولت بعض الطعام اعادها الرجل ، على ظهر حمارة ، الى بيتها .

ومر الوقت وصلى الرجل الظهر ثم العصر . كانت حالتها تزداد سوءا ، وخوارها يزداد ضعفا . وما عادت تستطيع ان تعلق نفسها على أرجلها بتاتا . واما رأسها فكانت بصعوبة تقدر ان ترفعه عن الارض . وقف الرجل قبالتها لحظة يتطلع فيها . كان في عينيه حيرة واستعطف . فاحس بشيء ما يتمزق في داخله . - « الاحياء من الصالحين فيهم الخير والبركة » - قال في نفسه - « ولكن للاموات حرمة اكبر ... » .

وركب الرجل حمارة ، وراح الى مقام سيدنا خير الدين . كان المقام بعد اقل من ساعة ، ويتوسط ثلاث قرى يخدمها ببركاته . كان عبارة عن قبر اطول وأعرض قليلا من المعتاد ، يرتفع عن الارض نصف متر او اكثر قليلا ، ومبني من الطين المتشقق ، الذي نبتت الاعشاب في شقوقه .

وبعد ان أفرغ الرجل قلبه وهو مقرص عند رأس سيدنا صاحب المقام ، التفت بعض الاعشاب النابتة في شقوق القبر ، وقفل عائدا . في البيت غلى تلك الاعشاب ، وسقى بقرته ماءها ، بعد ان برد ، ثم راح ينتظر .

ولكن ذلك كله لم ينفع . وما ان جاء المغرب حتى كان خوار البقرة الممطوط الواهن يدخل أذني الرجل ويتلوى داخله . ولكنه لم يقطع الامل . وفي العشاء ، لم يجد الرجل ما يصنعه غير ان يصلي ركعتين زيادة ، ويدعو ربه . وبعد الصلاة ، جلس قبالتها طويلا وهو يشعل السجارة من أختها . وعندما لم يعد بإمكانه ان يقاوم سلطان النوم ، نهض الى فراشه وأغفى .

- « كلا بل الحمار ... هذه بقرتك يا شيخ الزفت ؟ سلامة عقلك ؟ » .

قالها ابو سعدة بجدية ، وكأنه يستغرب ان يعتقد الشيخ ان الحيوان الميت بقرة .. والحقيقة ان العاصفة الكبوتة داخله كانت قد بدأت تتحرك - « يظهر انك انهيت .. هل هذه حمار ؟ » .

- « انهيت انت .. وهل هذه بقرة ؟ .. هيا ارفع من ناحيتك » - قال ابو سعدة وقد ارتفع صوته قليلا . ووجد سيدنا نفسه يزعق في شبه هستيريا :

- « هذه بقرة .. بقرة .. بقرة .. اما مجنون .. اقول لك بقرة .. » .

عندها هدا أبو سعدة قليلا ، ونظر في الشيخ نظرة ذات معنى ، وهو يشير بيده الى السماء :

- « بقرة .. يا سيدنا .. بقرة ! انت تعرف وانا اعرف انها بقرة ولكن .. اقنع صاحبك الذي فوق .. » .

ثم اخذ نفسا ثقيلًا وواصل حديثه :

- « من يومين مرضت . اول ليلة قلنا له انه اذا كان ولا بد فليأخذ الحمار .. بلاء أهون من بلاء . قال « طيب » واتفقنا .

وحتى لا يغلط قلنا له ان البقرة مربوطة في الداخل والحمار في الخارج . قال « طيب .. انت تدلني ؟ » . قمنا في الصبح واذا به قد اخذ البقرة . هل تقول لي انه غلط ؟ هذا رب هذا .. السذي لا يعرف البقرة من الحمار ؟ .

واحتقن وجه عبد الله ابو سعدة ، وحبس دمعتي قهر ، ومد يديه يرفع البقرة الميتة من جهته . ومد الشيخ - الذي فهم هدا - يديه من الجهة الاخرى ، وحمل البقرة بعيدا عن البيت .

## توفيق زياد

( الارض المحتلة )

صدر حديثا عن

### دار دمشق

#### ١ - في الاستعمار

تأليف كارل ماركس - فردريك انجلز

#### ٢ - الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي

تأليف ارنست مائدل

#### ٣ - الحقيقة كلها

تأليف روجيه غارودي

#### ٤ - في سبيل نموذج وطني للاشتراكية

تأليف روجيه غارودي

#### ٥ - النظرية المادية في المعرفة

تأليف روجيه غارودي

#### ٦ - الثورة التي لم تتم

تأليف اسحاق دويتشر

صدر خلال هذا الشهر

#### ١ - استعادة الامل

تأليف روجيه غارودي

#### ٢ - المادية والمنهج التجريبي النقدي

تأليف لينين

#### ٣ - مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط

تأليف دكتور طيب بتزني

#### ٤ - حول مشكلات الثقافة والثورة في العالم الثالث

تأليف دكتور طيب بتزني

تطلب من جميع المكتبات في الاقطار العربية ومن الناشر

دار دمشق : دمشق شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٢٢

تنفجر في داخله . وبقي مفرصا امامها بعض الوقت ، وهو لا يستوعب ما حدث ، ولا يكاد يفهم لماذا حدث ، بعد الذي رأى في نومه .. واستيقظ البنات وامهن . وعندما عرفن الحقيقة ، تجمد الكلام في حلقوقهن ، وأحطن برجلهن وبقرتهن الميتة . كن لا يتجرأن على النظر الى وجه رجلهن ، الذي طفق بالالام واحتقنت عيناه ، والذي منمته رجولته فقط عن بعض البكاء الذي رغب فيه ..

ولكن للحياة طبيعتها . ولا يمكن البقاء امام بقرة ميتة وقتنسا طويلا ، ولو كان وجهها الميت اشبه بوجوه البشر الموتى . كان لا بد من حملها واخراجها من البيت .

ونفض الرجل ، وخرج الى قارعة الطريق ينتظر رجلا عابرا ، ليساعده على اخراج البقرة الميتة من البيت ، الى الطرف الاخر من الطريق .

- ٥ -

وكان اول العابرين سيدنا الشيخ « سعيد القبلاوي » ، شيخ الجامع وامامه ، ومدرس الاولاد وحلاق القرية ودكتورها ، وكاتب عرض حالاتها . وكان خفيف الروح وعلى علاقة جيدة بالناس ، يمازحهم فيتحملونه ويمازحونه فيتحملهم حتى ولو معطوا ذقنه .. كانوا يحبونه . واشتد حبه له بعد الذي عمله عندما أرادت الحكومة مصادرة سهل البلد و « خلة الزين » المشاع ، وأحضرت التراكتورات والموظفين وتجمعت البلد عليهم . يومها رمى الشيخ سعيد القبلاوي ، مع انه لا يملك شبر أرض ومع انه لم يكن أصلا من القرية ، رمى نفسه امام التراكتورات وهو يصيح : « فينا ولا في الارض .. » وتبعه الجميع . رموا أنفسهم على الارض مثله فتوقفت التراكتورات ثم زفوا الموظفين زفة ما لها أخت خارج القرية ، ولم يرجعوا من يومها .

كان الشيخ سعيد يقترب ، بعفته الحمراء البيضاء ، وجبتته التي لا يعرف أصل لونها أحد ، ونعله الخفيف الذي يلبس قدمه وكأنه جزء منها . كان يبدو مثل الديك الذي ليس له صاحب فيتقزم على كفه .

وما أن أصبح على بعد خطوات من عبد الله ابو سعدة حتى بادره :

- « السلام عليكم .. مالك أصبحت تقطع الطريق ؟ .. » .

- « قطع رقتك ورقية الذي حط لسانك في فمك .. - قال ابو سعدة الذي كان مثل العاصفة المتجمعة ، التي تمسك نفسها عن الانفجار - ثم أضاف : « وعليكم السلام ... » .

وزفر ابو سعدة زفرة ثقيلة ، وزاد من تجهم وجهه ، ليوحى للشيخ أن لا يتماذى اكثر ، فالمسألة جد كل الجد .

وبالفعل عندما توقف سيدنا امامه ، لاحظ ان الرجل لم يقف وقفته تلك صدفة .

- « هيه .. خير ان شاء الله .. » .

- « خير ... وهل في الدنيا غير الخير ؟ .. تعال معي قليلا .. » .

- « هيه .. ماذا حدث ؟ » سأل الشيخ ثانية ..

- « الحمار حاشاك .. الحمار .. » .

- « حمارك ؟ .. ماله ؟ .. دقته شوكة ؟ .. » .

وعلى الرغم من العاصفة التي كانت داخل عبد الله ابو سعدة ، الا انه كان يكتبها ويتحدث من مرارة منطفئة .

- « نفق .. الليلة .. نفق .. تعال نحمله خارج البيت قبل أن تطلع رائحته .. » .

وتبعه الشيخ سعيد . وعندما وصل البيت ، كان الحمار مربوط امامه ، والذي دبث فيه حياة جديدة ، يقفز مثل القرد .

فاستغرب الشيخ ، ولكنه دلف وامامه ابو سعدة داخل البيت . وهناك فوجيء بالبقرة الميتة . وتساءل مندهشا :

- « تقول الحمار ؟ .. هذه بقرتك التي ... » .